التصوف قديماً وحديثاً

كلمة صوفى

أعربية هى أم يونانية ؟

منذ ثلاثة أعوام تقريبا ، نشرت خلاصة من هذا البحث بجريدتى العلم واليوم ، وقد كان ذلك لمناسبات انقضى حينها . وأنشر الآن هذا الفصل لمناسبة ما كتبه أستاذنا الجليل السيد مصطفى عبدالرازق ، فى الجزء الثانى من هذه المجلة ، وما ألقاه الاستاذ الدكتور مشرفة عن التصوف منذ شهرين ، مما جعلنى أومن بضرورة نشر ما كتبته سابقاً ، رجاء أن يتفضل أحد الاستاذين الفاضلين ، أو أى انسان ببيان شاف يقطع الشك باليقين ؛ ورضى الله عن الامام الشافعى فقد كان يقول « هذا علمنا وهو أحسن ماوصلنا اليه ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه » ؟ المحرر

* * *

قبل أن نتكلم عن هذه النقطة التي أفردنا لها فصلا خاصا ، أرجو أن يعرف القارىء بأن حلها ليس بالأمر الهين أو اليسير ، بل هى على النقيض من ذلك تمام المناقضة ، وخاصة بعد اختلاف العلماء والمؤرخين فيها ، بل و بعد أن تباين كل المتصوفة أنفسهم فى مصدرها الاساسى بلا استثناء أو تخصيص ، وحسبك أن تعلم أن واحدا من المؤرخين أو اللغويين أو الصوفيين إطلاقا لم يستطع حصر الخلافات التي قامت على أسباب تلك التسمية : ولعل هذا سبب حيرة المحدثين مسلمين ومستشرقين ، ولذلك فأني أعتقد اعتقادا جازما لا ريبة ولا خلجة فيه بأن فى معرفة الأصل اللغوي لهذه الكلمة ، ماقد يكشف لنا الستار عن حقيقة هذه الطائفة و يوقفنا على تاريخها وتطورها بين الأمم القديمة والحديثة ، بل و يساعدنا على تفهم أغراضها وما تشير إليه مدلولاتها : فنستطيع وقتئذ درس حقائقها والوقوف على دقائقها من طريق اليقين ، لا من طريق الحدس والتخمين.

قد يقول بعض القراء ، ليكن الأصل اللغوي للكلمة موجودا أو معدوما متفقا مع أغراض الطائفة أو مخالفا لها ، فذلك خلاف لفظى لا أكثر ولا أقل إن هو إلا رجوع إلى التسمية لا ثمرة منه ، فأن الأسماء لا تعلل

وهذا فى الواقع خطأ لا يغتفر فى بحث كهذا ، إذ لا يقتصر الأمر فيه على التسمية أو يقف

عند حد اللفظ ، ولكن الأمر يتعدى ذلك بمراحل طويلة ، وحتى لوسلمنا جدلا بقول من يرى ذلك الرأي ، لكان للبحث في هـذه التسمية قيمة ، وما كان ذلك ليبخس أو يقلل من شأنه شيئا .

أيصح لك أن تسمى المجاز كناية؟ أو المفرد جمعا ؟ أو المؤنث مذكرا؟ إن الامر لا يقف عند ذلك فحسب ، بل يقلب نظر القراء إلى التصوف رأساً على عقب ، ويغير رأي البحاث عموما والمستشرقين خصوصا ، فيما أخذوه على صوفية العالم عامة والمسلمين منهم بصفة خاصة ، من مآخذ باطلة ؟ وترهات واهية سنكشف لهم الغطاء عنها حتي لا نجعل لمستريب شكا ودليلنا على هذا مايدعيه بعض أولئك المستشرقين من نسبة التصوف إلى الاسلام واتخاذ أتباعه إياه وسيلة للهرب من تكاليف الحياة والأخذ بالاسباب والتأثر بالجبر والتوكل ولا وقفك على مقدار مابذله السابقون من الجهود فى سبيل الوصول إلي حقيقة الكلمة أعرض عليك طرفا مما ذكروه فى هذا الصدد .

يقول صاحب كتاب روض القلوب المستطاب :

وقد جري من حيث الاشتقاق في لفظة التصوف الشقاق
وكل ذى قول له توجيه لقوله فى نفسه وجيه
ولكن القياس والقواعد في جملة الأقوال لا تساعد

كذلك يقول أبو الفتح البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

و يقول العلامة القشيرى فى رسالته « وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب »

و يقول ابن خلدون بعد أن عدد ثلاث خلافات نقلها عن القشيرى « قلت والأظهر ان قيل بالاشتقاق أنه من الصوف »

ولا يقتصر أمر تلك الحيرة عند هؤلاء فحسب ، بل هى عند الجميع بلا استثناء . وسنقدم إليك أقوالهم عن ذلك فى حينه .

لكل ما قدمت أرجو أن يبحث القارىء معى بأمعان هذا الفصل بصفة خاصة . وأرجو ألا أكون مسرفا فى القول ، أو مبالغا في الزعم ، إذا ما قررت بأني جمعت فى

ذلك الفصل كل الأوجه التى يظن وجودها في هذه الكلمة ، وقد أكون وفقت الى معرفة صحيحها من فاسدها كما سنبينه لك .

وأقدم اليك قاعدة عامة فى علم الاشتقاق ترجع اليها عند الخلاف أو التطبيق ، وهذه هى : ـ « الاشتقاق قاض بملاحظة معني المشتق والمشتق منه ، فمدلول المشتق مستشعر من لفظه فأن تعدد تعدد الشعور ، ثم إن أمكن الجمع فمن الجميع ، و إلافكل بلاحظ معنى »(١)

نرجع الآن إلي الكلمة لنرى إن كانت عربية الأصل والمنبت أو دخيلة على العرب والعربية . أما أنا فأقرر لك من الآن بانها دخيلة على لغتنا اعتمادا على ومافقنا اليه من البحث أجل ، أقرر لك بانها دخيلة على اللغة العربية ، وأنها لاتمت بصلة ما إلى لغتنا مطلقا ، بل أكثر من هذا أقرر لك بأنها يونانية الأصل والمنبت ، ولعلك لاتغضب لهذه المفاجأة إذا ماعلمت بأن هذا ينتهي بنا إلى غاية حميدة ، و يوصلنا إلي مأرب نبيل .

لنرجع إذن الي مصدر الخلاف بين الفريقين : وفى سبيل تعرف ذلك أذكر لك جماع الخلافات والمظان اجمالا مرتبة بحسب قيمتها من البحث . ثم نعود الى بحثها تفصيلا وهاك عددها وهو يبلغ تسعة .

(١) من (الصفاء) أو (الصفو)
(٢) من (الصفة) بكسر ففتح
(٣) من (الصف) الجمع صفوف
(٤) من (الصوفانة)
(٥) من (صوفة القفا)
(٦) من (صوفة بن مر)
(٧) من (الصفة) بشدة مضمومة فأخرى مفتوحة
(٨) من (الصوف)
(٩) من (سوف) أو (أوصوفيا) اليونانيتين

ـ ١ ـ

أما القول الاول وهو القائل باشتقاقها من (الصفاء) أومن (الصفو) فيعللونه بأقوال كثيرة ، منها قول أبى القاسم الجنيد« لصفاء قلب المريد وطهارة باطنه »وقول آخر « لأن الصوفى من صفوة الله » وقول شيخ الاسلام زكريا الأنصارى فى شرحه على القشيرية « التصوف مأخوذ من الصفاء . وصوفية لأن الحق صافاهم وأخلص لهم النعم بما أطلعهم عليه »وقول أبى الفتح البستى:

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غيرفتى صافى فصوفى حتى سمي الصوفى

و يروي له هذا المعني أيضا فى رواية أخرى هكذا :

(١) راجع قواعد التصوف ص ٤ لابى العباس الشهير بزروق طبع مطبعة المعاهد .

ياواصفى أنت فى التحقيق موصوفى وعارفى لا تغالط أنت معروفى
إن الفتى من بعهده فى الأزل يوفى صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

وبالرغم من أن هذا المعنى الجليل ـ معنى الصفاء ـ ينطبق تمام الانطباق على حال الصوفية العارفين المحققين. فانى آسف ـ إجلالا لحرمة العلم والتاريخ ـ لأن أقرر بأن هذا بعيد عن محجة الصواب ، وأما هذا التعمل الذى يتعمله البستى لأخراج الكلمة على صورة من صور اللغة فظاهر البطلان لا يحتاج فى نقضه إلى دليل أو برهان ، فاشتقاق كلمة ما من فعل مبنى للمجهول لا يكون أبدا ، اللهم إلا فى كلمات معدودة وهى المرتجلة المخالفة للقياس والتى لم يرد منها هذ اللفظ مطلقا ، وعلى هذا فانا مضطرون للحكم بخطأ هذا الرأي لغة و إلا لوجب أن يقال (صفوي) بحكم قاعدة النسب فى اللغة .

ولزيادة الايضاح أعرض عليك موجزا وافيا من تصاريف المادة فى معاجم مختلفة

قال صاحب القاموس المحيط ج ٤ ص ٣٥٢ طبع الحسينية « الصفو نقيض الكدر كالصفا والصفو وصفوة الشيء ماصفا منه وصفا الجو لم يكن فيه لطخة غيم واستصفاه أخذ منه صفوه واختاره كاصطفاه وعده صفيا والصفي كغني ، الحبيب الصافى »

وفى صحاح الجوهرى ج ٢ ص ٥٠٤ « الصفاء ممدود خلاف الكدر وصفوة الشيء خالصه ومحمد صفوة الله من خلقه ومصطفاه أبو عبيدة والصفى المصافى والجمع صفايا » قال الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

ويقول صاحب مفردات غريب القرآن «أصل الصفاء خلوص الشيء من الشوب ومنه الصفا للحجارة الصافية . واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بايجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود فى غيره وقد يكون باختياره وحكمه وإن لم يتعر ذلك من الأول قال تعالى « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » والصفي ما يصطفيه الرئيس لنفسه »

وبمثل هذا قال صاحب اللسان وصاحب تاج العروس وصاحب الأساس وغيرهم ولكننا اختصرنا خوف الملالة

و بعد فما أظن النسبة الى الصفاء ـ وهذا تصريف المادة قدمناه ـ على نحو « صوفية » بمعقول أو مقبول مطلقا . وللقارىء أن يثق بأن جل المتصوفة ينكرون اشتقاق اسمهم من الصفاء.

قال العلامة القشيري فى رسالته المعروفة ص ١٢٦ طبع الحلبى « من قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة »

وأنكر العلامة ابن تيمية تلك النسبة وخطأها أيضا في كتابه « الصوفية والفقراء » طبع المنار وكذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمته والحافظ ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس ابليس » وكثيرون غيرهم .

وأرى اختتام هـذا الوجه برأى عجيب ذكره الشيخ السـهروردى فى كتابه عوارف المعارف قال « قيل كان هذا الاسم فى الاصل صفوي فاستثقل ذلك وجعل صوفيا » وهذا رأى ضعيف جدا لا يعتمد على حجة لغوية أو يقوم على دليل تاريخي... والاستاذ السهروردى نفسه لم يأخذ به واكتفى بايراده فى تعداد الخلافات .

بعد كل هذا الذى تقدم يتضح لنا بجلاء تام بعد ذلك الرأى عن الصواب ، وإذن فلننتقل الى مناقشة الرأى الثانى .

— ٢ —

يقول أصحاب الرأى الثاني إن الكلمة مشتقة من « الصفة » بكسر ففتح والجمع صفات . ولم أر من ذكر هذا الرأي ، غير الاستاذ أبى العباس الشهير بزروق في كتابه قواعد التصوف . قال « إنه — أى التصوف — من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحاسن وترك الاوصاف المذمومة »

ولعل أصحاب ذلك الرأى على خطأه وعدم وجاهته لغة يعتمدون على قول أبي القاسم الجنيد فى تعريفه من تعاريفه للتصوف « التصوف خروج عن كل خلق دنى ودخول فى كل خلق سنى » وقد يكون التعليل جميلا وإن لم تقم عليه حجة أو يؤيده برهان منطقى . هذا من حيث التعليل إن صح حدسنا ، وكذلك من حيث اللفظ ، لأن كلمة صفة تشمل الحسن والقبح إذ هى الحالة التى عليها حال الشيء إطلاقا وقد يكون الوصف حقا وباطلا ، ولو سلمنا جدلا بان المقصود من نسبتهم الى الصفة ، إنما هو الاتصاف بالمحاسن لقيل (صفاتيه) لا صوفية : ذلك للجمع : صفتي لا صوفى وهذا للفرد ، وتلك هى قاعدة النسب . ولعل القاري ، لا ينسى فرقة الصفاتية — الذين يثبتون الصفات الازلية لله تعالى — فان كلمتهم مأخوذة من الصفة وهى صحيحة لا غبار عليها من حيث اللغة

ومالنا نذهب بعيدا فى التدليل على فساد ذلك الرأي والاستاذ ابن زروق نفسه أنكره ولم يأخذ به ؟

فلننتقل إذن إلى الرأى الثالث وهذا ماسنحدثك عنه فى الجزء المقبل إن شاء الله ؟

عبد العزيز مصطفى الاسلامبولى